أغنية المد الحزينة

قصة بقلم عطاء النقاش

« ـ غريب !! » قال الطبيب ذلك فاجابه صوت امرأة متشحة بالبياض

« ـ مـــاذا ؟ »

« ـ ذلك الامر ! » فنقلت عينيها بين الطبيب وبينه ثم توقفت نظراتها على شفتي الطبيـب :

« ـ .. لقد انتهى أغرب نزيف شاهدته في حياتي .. الدم ينبجس فجأة ونفشل جميعا في ايقافه ثم يتوقف فجأة ايضا كما لو كان هنـــاك سر .. مد ثم جزر غير منطقيين .. لم تبق انبوبة دم واحدة في المنطقة .. لقد خابرنا القاهرة . وقبل ان ترد سوف ينتهي .. اجلسي بجانبه ولا تدعي احدا يقترب من الحجرة .. سيتم كل شيء في هدوء .. فجأة سوف تجدين المد قد بدأ بعنف .. وللمرة الاخيرة ، وسوف تكون دلائل ذلك واضحة ، فسوف يتراجع المد شيئا فشيئا .. ولن يتوقف فجـأة كما حدث في المرات السابقة .. هل تفهمين ؟؟! » ..

وهزت رأسها ، فمسح الطبيب عرقه ودلف من باب الحجرة ، فأطفأت الضـــوء ...

تململ في فراشه ، فاقتربت منه متسائلة . كان متعبا الى حـــد الموت .. وكان كل شيء يبدو لعينيه وهما ، لم تكن تلك هي المرة الاولى التي يتعرض فيها للموت .. ولكنها المرة الاكثر عنفا من سابقاتها .. ثنى رأسه تجاههـــا :

« ـ لقد طلبت بعض الاشياء !؟ » فاجابت :

« ـ كل شيء تم على الوجه الذي تريد .. »

« ـ أيـن ؟ »

« ـ هاهي الاوراق .. والقلم والمحبرة .. و .. »

وصـرخ محتـــدا :

« ـ ولكنني طلبت اوراقا زرقاء !! »

فهـدأت مـن روعه قائلة :

« ـ ياعزيزي انها زرقاء تماما كما طلبت .. دقق النظر وستـــرى ذلـــك .. »

« ـ عفوا .. أضيئي الحجرة .. يمكنك ان تشتغلي بأي شيء .. تريكو .؟ يالله .. وملابس طفل ايضا .. ياله من امر جميل .. »

« ـ سأساعدك علـى النهوض .. »

« ـ كلا .. شكرا ..انني استطيع النهوض وحدي . لم انته تمامـا بعـــد .. »

« ـ الاعياء يقتلك اذا ارهقت نفسك بالكتابة .. »

« ـ لاتهتمي .. سوف انتهي من كل شيء قبل ان اموت .. استطيع ان انتهي .. ثقي بذلـــك »

كل شيء حوله ساكن .. انسحبت السيدة الى زاوية مهجورة مـــن الحجرة .. ورفع رأسه الى اعلى .. واستند الى ذراعه ..أواه . لكم هزل ساعداه وشحبا ، وجلس على حافة الفراش ، ان عينيه لن تساعداه .. سيحاول ان يخدعهما .. لابد من ان يبدو كل شيء حقيقيا امـــام عينيه لمدة ساعة واحدة فقط .. انه لايطلب اكثر من ذلك . حسن ! ان الاشياء تأخـذ شكلهـا الطبيعي .. لم يرد ان يتأمل شيئا اكثر مـــن اللازم حتى لايموت معناه .. حتى لايغلبه الضحك على امره .. القلـم هو القلم .. والاوراق .. اجل هي الاوراق التي طالما كتب فيها اليها .. سيكتب هذه الرسالة .. بصورة او بأخرى .. الى الذين سيحزنهم موته « واليها هي بصورة خاصة » هكذا فكر .. ففي لحظة المد قبـل الاخيـر .. منذ ساعتين على التقريب .. كان اللحن مرتفعا .. وصاخبا .. كان النغم قاسيا على الاعصاب .. صوت تدفق الدم .. بصـــورة منغمة ورتيبة يوحي باللانهائية .. وفجأة توقف النغم المتدفق .. وانتهت الحركة قبل الاخيرة من اللحن .. الجذر . كان يجمع بقايا دمائه ليسكبها في حركة اخيرة انغامـا ملتهبة ..

« ـ قربي الضوء ياعزيزتي »

« ـ لو اقترب اكثر فسوف يؤذي عينيك ! »

« ـ لن يضير ذلـك »

فقربت الضوء .. وبدأ ..

*

. . . . .

.. انني ميت منذ امد بعيد .. من قبل ان تخترق الرصاصات الثلاث جسدي فتتمدد .. احداها في عظام ذراعي اليسرى وتثقب اثنتان امعائي .. من قبل ان تترصد عيون الحقول حركاتي لتقرر مصيري ... كانت البداية ساعة استقرت رصاصة واحدة قطعة من المعدن .. في جمجمة أبـي .. وكنت في العاشرة من عمري .. منذ تلك اللحظة وانا ميت .. عندما اصابتني البلادة للمرة الاخيرة فتوقف حسي عن العمل ..وقـد تعجبين كيف اجلس لاكتب لك هذه الصفحات .. لقد قصصت عليـك ذات يوم حكاية سائق العربة الذي تمزق لحم بطنه يوما في حادثـــة ، وانفجرت امعاؤه امامه ، فحملها في يديه وجرى في شوارع المدينـــة مايقرب من ساعة ، جريا مجنونا ، وظنناه كان قد سرق العربة .. واتضح فيما بعد ان العربة كانت له .. واستمر يجري حتى وصل الى المستشفى .. نفس الجدران التي اقبع فيها الان .. وسأل الدكتور في اعياء عن حل ..فهز رأسه ومط شفتيه .. لقد كان امام انسان ميت بالفعل .. فسقط الرجل ميتا على الفور .. ولو قيل له بطريقة او باخرى .. سيكون هناك حل ما .. لاستمر في الحياة اطول من ذلك . كان يلزمـه فقط شيء يفعله حتى يستمر في مقاومة ذلك الجفاف .. ولعل ذلـــك يفسر لك الامـــر ..

علي ان اخبرك بكل شيء قبل ان اسلم نفسي للرقدة الاخيرة .. ولا تبكي فذلك لن يصلح حلا للامور .. احضرت ورقا ازرق من ذلك الـذي تبادلنا فيه الرسائل حتى قبيل المعركة الاخيرة بيوم واحد .. اعـــرف انك تحبين الورق الازرق .. وبحثت عن عطر البنفسج نعم .. ذلك الذي احببته طوال ايامنا معا ، وكنت انثر منه على رسائلي اليك .. لـــم استطع الحصول عليه .. وعذرا فقد كنت اكتب اليك وانمق خطي واعيد كتابة الرسالة مرات ومرات .. وكان امرا ممتعا .. ولكني للمرة الاولى سأكتب اليك ما يخطر بذهني المكدود ... واذا انتهيت فاغفري لي بلادتي وصدأ عقلي الابله .. لقد كنت معتوها عندما اخفيت عنك ذاك الامر .. وكان سببا في فراقنا بغير رجعة .. وبلا وداع .. وكنت بحاجة الى كلمـة .. أي كلمة لتنقذ حياتي .. دفعة بسيطة في رأسي لاعـــود الى نفسي اعود اليك .. ولا امضي الى حتفي بقدمي. .

انت تذكرين مثلما اذكر وانا في لحظاتي الاخيرة هذه ـ اخر ليلة كنا معا في غرفتي المهملة في زاوية من زوايا القاهرة .. كانت نظراتنا تنسكب من النافذة لتستقر على نوافذ وشرفات مفتوحة بعضها مضاء وبعضهـــا مظلم.. وكان في بعضها اشباح تروح وتجيء وكنا نحلم معا ورائحة التبغ والاهمال تملأ غرفتي ، وفي الجانب المهجور ، من السقف عشش عنكبوت

أظنك تذكرين كم ضحكنا عليه معا .. ورفضت ان اسمح لك بازالته .. وتذكرين ليلتها انني قد حدثتك عن طفلتنا الاولى وحددت لك ملامحها الصافية .. طفلتنا التي يكفي ان تحمل ملامحك لتصبح اجمل امراة في الوجود .. وضحكت .. واعلنت غيرتك من تلك المرأة التي ترتب لي فراشي في كل صباح وتغسل لي ملابسي .. وحكيت لي عن بكائك في ليلة سابقة واصابني وجوم ، وكان شعرك يسيل على جانبي وجهك فتخفين ملامحك وتخفين خجلك معها .. كم كانت ممتعة تلك اللحظات .. كانت شفتاك القرمزيتان تتفجران رغبة .. كانتا مثيرتين ، وقبلتك ثلاثا واعترضت .. فقبلتك ثانية .. وتعلقت ذراعاك البضتان بعنقي .. وكان شعري طويلا مثلما هو الان .. وما زلت اشعر بمكان ساعديك محفورا حول عنقي .. لم يكن هناك من هو اكثر سعادة منا في تلك اللحظات .. وبالاخص عند ما كان شعرك الغابي يعربد في صدري نصف العاري .. وتذكرين كم وجمنا .. وتوقف فكري عن العمل تماما وظللت صامتا حائرا .. عندما دق جرس الباب .. مرة .. مرتين . ثلاث مرات ، قبل ان اجرجر قدمي لافتح الباب .. هل كنا ننتظر تلك الاخبار المشئومة ؟! ولماذا وجمنا وتوقعنا شيئا من هذا النوع ؟! الانه ليس من المعقول ان يتمتع الانسان بالسعادة اكثر من اللازم ؟!.. بالشقاء الحيق !. وعدت اليك وبيدي البرقية واخفيتها في جيبي وجسدي كله ينتفض غضبا وثورة .. وسالتني ما الامر ولم أشأ ان اجيب ، ولكنه كان من المستحيل ان نكمل ليلتنا في هذا الجو المشحون المعبأ .. بـ .. بماذا ؟! ودفعت اليك بالبرقية فجأة في وجهك لتمر عيناك على هذه الكلمات : « احضر حالا ـ خرج ـ كن مستعدا ـ امضاء : عمك » واعلنت نظراتك انك لم تفهمي شيئا ، وكنت بحاجة الى شيء ما يهدىء من روعك ، لقد اكتشفت انك تصبحين جميلة بصورة اخرى عندما تغضبين وعندما يصيبك الذعر وتذرف عيناك الدموع .. ورحت أتأملك وانت تنتظرين تفصيلا .. وقذفت تلك الكلمات : « ـ لن اذهب ! » وكان بامكاننا ان نقضي بقية ليلتنا ولو واجمين .. وانت نهمة الى شيء اخر .. الى تفصيل اكبر .. ما معنى هذه البرقية ؟ تساءلت طويلا بالتأكيد بينك وبين نفسك وربما بكيت طوال الليل مثلما فعلت يوم رفضت ان اريك الرسائل المكتوبة بصورة مضطربة وخط لايقرأ اطلاقا .. واتهمتك بالتطفل .. وكانت تلك الرسائل تشرح ايضا نفس المسألة .. كانت سرا مبهما ايضا .. وكنت في البداية تشعرين بان كل رسالة تأتي الي تباعد بيني وبينك ، ثم اصبحنا لانكترث لها . واصبحت لاتهتمين ، وازددنا ارتباطا ـ بصرف النظر عن بعض الاسرار التي يحتفظ بها كل منا لنفسه ـ هكذا عللنا المسألة ، وكنت غبيا وطفلا .. لانني لم اخبرك .. ولو اخبرتك يومها لو اخبرت اي انسان منذ اللحظة الاولى .. لما كنت اجلس الان على فراش ابيض ، وكل شيء يبدو حولي غير حقيقي .. لاكتب كلماتي الاخيرة .. كان من المستحيل ان تنتظريني لارسل اليهم البرقية واعود فنستمر .. ماذا سنقول وشبح هذه الكلمات الجافة الميتة يطاردنا ؟ وما كنت اعرف ان الكلمات في بعض الاحيان قد تنقلب نارا .. وكان الامر كذلك بالرغم منا كلينا .. وعرضت عليك ان اوصلك ثم اذهب لارسل اليهم برقية اقول لهم : « لن اعود ! » كلمتان اكثر التهابا مما يتصورون .. وسيكون ذلك كافيا .. وعند ذلك سوف نلتقي في الصباح .. ولكنك اصررت على البقاء حتى اعود لتتأكدي من كل شيء ، لقد جاءت الفرصة لتعرفي ماهية هذا الغموض وهذه الرسائل .. وارتديت سترتي ، ورميت الى بربطة عنق حول ياقتي فنزلت دون ان اربطها ودون ان ارتب شعري ، ونسيت .. ان اقبلك ـ وعذرا فقد كنت مشغول الفكر حتى الموت ـ ونزلت .. وجدتني انساق حتى محطة القطار ، لا ادري اي شيطان دفعني الى هناك ، ولو كان هناك اله يحمي العشاق كما كنت تقولين في الايام الماضية ـ والهة ايضا ـ لاوقفاني في الطريق ـ سأذهب اليهم لاصيح في وجوههم ان الانسان ليس دمية يصنع مصيرها لن احمل السلاح في حياتي.. وبعد ساعتين .. وما ادري ماذا فعلت اثناءها ، وكم لعنتني فيها ـ كنت اطرق شوارع قريتنا النائمة في حضن النيل من ناحية وفي سفح الجبل من الناحية الاخرى .. كان الليل قد انتصف .. وبلدتنا.. يموتون بعد العشاء .. وتصبح القرية للذي يرقبها من اعلى جبانة اطبق عليها الصمت وتراقصت بعض الاضواء .. تصوري .. ثورة من الغضب الفائر الاخرس ، وليلة باردة شاحبة النجوم ، وقرية ميتة بليدة .. كنت ارغب في ان انفجر .. وخاصة ان الطريق كان خاليا ، وكل شيء يفرض نفسه علي فرضا .. انني لاارفض وجود هذه الاشياء مجتمعة ولا ارفض وجودها متفرقة .. ولكن .. آه .. لو كانت اقل جبرية مما هي عليه الان . لما اندلعت النار في باطني على هذه الشاكلة ..

دارنا .. هي الوحيدة التي انبعثت منها قطرات متشابكة من الضوء تترصد .. وغاظني انني حققت للرؤوس المتحلقة حول المدفأة رغبة . او نصف رغبة ، وما راودني في تلك اللحظة اكثر من رغبة جامحة في تشويه هذا اللقاء ،.. لاكسر آمالهم منذ البداية ، وفكرت بجنون حتى وصلت الى الباب ودفعته بقدمي مرة واحدة ووقفت في المدخل .. ووقفت بعض الرؤوس المتحلقة حول النار وقبضت الايدي على الاسلحة .. بنادق عتيقة ، بينما اجفل الباقون وحدقوا ، وكأنهم لايفهمون ، ولا يدركون شيئا .. وغاظني اكثر .. الابتسامات التي علت شفاههم .. فاطلت النظر الى وجوههم بحقد وغيظ ، واذن.. فهذه الوجوه المشدوهة التائهة ابدا هي التي تريد انتزاعي من عالمي .. من سعادتنا .. لا لن اسمح لهم .. وشعري مشعث تتخلله سحابات من الدخان ، واحسست لوهلة انني ابدو لعيونهم المشدودة الي لغزا مبهما .. مستعصيا على رؤوسهم التائهة .. وسرني ذلك الشعور .. وظللت واقفا مكاني والدقائق تمضي ، وتحشرج من جانب المكان صوت لاهث جففته النار المشتعلة في الموقد :

« الم يعلموك في القاهرة كيف تسلم على اهلك عندما تعود اليهم بعد غياب ؟! » وتفجرت الكلمات المثلجة .. قطرات من البرودة تسقط فوق سطح من غضب ملتهب محموم : « يا ابن العم .. لا تخجل

ربيع العرب

خمسة احاديث لخمسة اقطاب في الشرق الادنى :

ـ كيف يتصور الرئيس جمال عبد الناصر حل قضية الجزائر ومشاكل العرب الاخرى .

ـ شكري القوتلي يشرح الاسباب التي جعلت سوريا تنضم الى مصر وتؤلفان الجمهورية العربية المتحدة .

ـ رشيد عالي الكيلاني يتنبأ بانقلاب سياسي في العراق يقضي على نوري السعيد والعائلة المالكة .

ـ نوري السعيد يذهب ضحية اطمئنانه الى سلامة سياسته ، ويتعامى عما تتوق اليه نفوس شباب العراق من حرية وعزة وحياة كريمة .

ـ فطين زورلو ، وزير خارجية تركيا ، وحنينه الى الامبراطورية العثمانية ونفوذها في الجزائر العربية .

« ربيع العرب » وثيقة تاريخية يحتاج الى مراجعتها كل من تهمه قضايا الساعة في الاقطار العربية .

نشر :دار المكشوف ، بيروت

ولا تخش شيئا .. اعتقد ان اباك لم ينجب نساء.. اقترب واجلس» هذا الصوت الكريه وتلك الرنة البغيضة ، لكم اعرفها واحقد عليهـــا بكل ما املك من مشاعر متدفقة صوت عمي هذا الابله المغرور ... لكم اود ان انشب اظافري في عنقه حتى ينتهي .. ولكن .. لقد سحبتني يده لتجلسني في جانب هؤلاء الرجال المنحطين .. هؤلاء الذين صنعوا لي قبري، ويريدونني وانا في امضى لحظات سعادتي ان ادفن نفسي بنفسي فيه ، واحكـم خلفي الغطاء ، وانا ما زلت اتنفس ، وما زلت هناك، هناك اشياء كثيرة .. اشياء جميلة ورائعة اود ان افعلها .. ومـــن حقي ان افعلها .. ووقفت امام شفتي غابة طويلة ، ودفعني عمي في كتفي بمرفقه ، ورفضت ، وما هذا ـ في عرفهم ـ بطبع الرجال وحثونـــي مرة ومرة ، ورفضت حتى يئسوا .. وعندما انتهوا بعد منتصف الليل بزمن طويل وتفرقوا في حجرات المنزل الرطبة ، وتركوا فـــوق الارض بندقية اكثر جدة من بنادقهم جميعا ، وبقيت انا وعمي .. وكان اللهب قد خبا ولم يبق الا بصيص ضئيل بين الرماد ... وانثنيت اختبـر البندقية الممددة امامي فوضع عمي يده فوق راحتي وانتزعها مني :

« انها معباة يا .. رجل » كانت المرة الاولى التي لا يناديني فيها بيا « صغيري » كما تعود واعترتني رغبة في ان اصـــبح فـي نظـرهم « صغيرا » واستمر كذلك حتى النهاية .. ونهض عمي .. وراحة يده الضخمة تجرني من كتفي :

« ـ انني اريدك في امر .. سنمشي قليلا في الخارج» وقبل ان اعبر الباب كان قد رمى فوق كتفي عباءة فضفاضة ، وتدثر هـــو بـاخرى مثلها وخبأ السلاح تحتها ثم مضينا في الطريـق .. كان غضبي يجتمع ويتكثف . وكـان اللهـب يندلع شيئا فشيئا ، فصرخت في وجهـه محتدا :

« تكلم وقل ما تريد » واستغرب الرجل هذه الرنة فـي صوتـي فاقترب مني وشدني في رفق نحوه فهمست بصوت متحشرج فـــي أذنه :

« انني امقتك الى حد الموت .. » وانتفض كالملسوع واخرج بندقيته سريعا وناولني اياها فلم امد يدي .. فركنها على جذع شجـــرة قائمة في الطريق الممتد بين الحقول ، وبدأ يشرح لي ما علي ان افعله. سأتناول هذه البندقية واظل متكوما في مكاني حتى اقتراب الفجـر وعندها سيمر رجل نحيل ذو شوارب غليظة وشعر قصير متجعـــد يحمل فأسه ، طالما ارسلوا الي صوره لاحفظ شكله واتعرف علـــى ملامحه حتى من قفاه ، وتأملت المسألة ، ونسيت ان ابدأ احتجاجي . فاستمر عمي في شرحه وكيف انه عندماسيبتعد الرجل عني ببضعة امتار ما علي الا ان احكم تسديد الطلقة التي ستخترق عظام رأسه ولـــو اخطأت فما علي الا ان اكررها حتى ينتهي .. ثم انزل من مخبأي وامشي الى الامام في اتجاه المدينة حتى حقول العنب التـي تنام على حدود البلدة وساجد من ينتظرني ليأخذ مني البندقية والعباءة ليعاد كـل شيء الى مكانه .. وعربة الخضروات المسافرة في الصباح الباكـــر والتي ستاخذني حتى المحطة ومنها الى القاهرة دون ان يـــدري احد وفكرت في الامر .. كيف استطاعوا تدبير هذا كله هذان العينـــان المفترستان ، وهذه القبضة القاسية .. اين هما من عينيك العميقتين في حنان .. ومن كفك الرقيقة الهشة الناعمة .. وااسفاه . ونهضت من مكاني ، ونزعت عني العباءة ولففت بها البندقية وناولتهـا لعمـــي قائلا :

« عمي .. خذ هذه الاشياء وعد بها الى البلدة .. وساذهب الـــى القاهرة .. ان امتحاني الاخير بعد اسبوع على الاكثر .. كفاه ما ذاقه في السجن . » وانتفض الرجل :

« ماذا تقول ؟! »

« ـ اقول ما قلته بالحرف الواحد ياعمي منذ ثانيتين اثنتين علـــى التحديد » وانفجر الرجل :

« ـ تريد ان تلوث شرف العائلة .. ماذا يقـول الناس عنا ؟ »

« ـ فليقل الناس ما يودون ولكنني لن اقتل انسانا نال جزاءه مـرة قبل ذلك .. ثم اذا كان هناك من يجب أن يرتكب هذه الجريمة ويقضي بقية ايامه معذبا مطاردا او سجينا .. فلن اكون انا ذلك الشخـــص اطلاقا .. »

« ـ نذل .. جبان » وجاءت الكلمات متكسرة الحروف من تحـــت اسنانه وكررها عدة مرات :

« ـ .. نذل .. جبان.. نذل ، نذل .. »

« ـ لست نذلا او جبانا كما تعتقد .. يكفي ما قاسيناه في حياتنا انني لا اريد ان اضيف عارا جديدا على نفسي »

وتوقف الرجل قليلا ثم صرخ محتدا :

« ـ ستقتله .. يعني ستقتله واباك والمجادلة !! » وصرخت انـــا ايضا :

« ـ انك لا تستطيع ان ترغمني على ان ارتكب مثل هذه الجريمـــة ابدا .. واذا كان لا بد من ان اواجه احدا بهذا السلاح .. فســـوف تكون انت هذا الانسان » وانتزعت السلاح منه ، ثم وقفت استـــرد انفاسي وعيناه تلمعان .. ووضعت فوهة البندقية في صدره وظـــل ساكنا .. وهدأت العاصفة قليلا وارتخت يدي وقلت برفق مرة اخرى:

« ـ عمي .. كن طيبا وحاول ان تفهمني مرة واحدة فـي حياتك . وسوف تكتشف انك لم تخطيء ولن تشعر باي ندم على الاطلاق لو فكرت بأن الامر قد انتهى اليوم ، وبأن حياتنا ستسير كما سارت دائما دون تعقيد .. تصور . انه رجل على حافة القبر فهل من الضروري ان يجذب واحدا منا معه ايضا .. دعه يعيش بقية ايامه .. ربمـا كـان ضميـره يقتله تأنيبا الان . فاترك له فرصة الندم .. هه »

وانتزع البندقية فجأة من يدي بعنف شديد حتى كدت اسقـــط فوق الارض .. وصرخ بصوت اجوف :

« ـ اما ان تقتله واما ان أغسل هذا العار بأن اقتلك أنت حتـــى لا يقال ان اباك ترك نساء خلفه ، قل شيئا واحدا فقط .. ستقتله ام لا ؟ اجب ؟! وصحت به على الفور :

« ـ كلا..لن اقتله مطلقا .. »

« ـ فكر قليلا يا ابن اخي »

« ـ ماذا تنتظر .. هيا جرب أن تطلق الرصاص على صدري .. لن اقتله .. لن اطلق رصاصة واحدة من هذه البندقية .. لقد جئـت الى هنا لاقول لكم ذلك ! »

ربما كنت وافقت على ان افعل ذلك لو ترك لي الامر لاختار . ولكن ما دام بهذه الجبرية فلن اقبل القيام به .. وبالاخص اني قد وجـدت نفســي مـرة واحدة والى الابـد .. يـوم وجـــــدتك ... يوم خفق قلبانا للمرة الاولى بالحب .. انني لست شيئا . أوضـــع وازال في اللحظة المناسبة .. وانذر لثار او لاي شيء اخـر مـن هذا القبيل .. انني اولا وقبل كل شيء وفوق كل شيء أنني « انا » بصرف النظر عما يحدث حولي ، وعما يريده لي هذا العالم ..

وكل الذي حدث بعد ذلك هو انني تلقيـت ضربة قاسية فوق راسي بمؤخرة البندقية وسقطت اتلوى ، وانطلقت رصاصات ثلاث .. وكـانت اذني فوق الارض فسمعت صوت اقدام تجري على الطريق .. وتحسست يدي سائلا لزجا ساخنا .. ولكن .. لقد كانت تلك هي النهاية فقط . فكيف بدأ هذا الامر ؟ ! ..

*

..... كنت ايامها في العاشرة .. سن الصفاء والاحلام والخيالات الجميلة . وسألتني عن طفولتي وما اجبت .. فمنذ تلك السن ، وقبل ذلك بزمن . كنت قد تبلدت ولم اعد طفلا .. وابي وسألتني عنـــه مرارا ولم اجب بشيء : « انه مات » ولم اضف شيئا ، وكان هـــذا هو السر الذي تحويه رسائلي المضطربة التي كانت تأتيني كثيـــرا . من عمي .. لقد علموني الحقد وكنت طفلا ، وما كان يجب ان اتعلم ذلك .. وان لم اكن قد اخبرتك يوما فقد اكتشفت حتما ـ وما عهدتك غبية يوما ما ـ انني من اسرة غنية وان كنت تدرين عنها شيئا ، ولـم تهتمي بذلك ، وكان هذا امرا طيبا منك يا عزيزتي .. لقد كنت احبك

اكثر من اي شيء اخر في هذا الوجود .. وبجنون .. وكنت ايضا ـ كما ذكرت لي مرارا ـ كذلك .. وكان هذا كافيا ، وان كنت بدوت صلفا وغبيا في بعض الاحيان .. كنت في تلك السن المبكرة ارى وجه ابي المتكبر ابدا .. المرتفع الى الامام ، واذهب معه . امسك ذيل ثوبي واحمل في يدي عصا واسير خلفه نحو ارضنا .. ولم اكد استمتع في تلك الفترة بشيء قدر استمتاعي بمتابعة الانفار الذين يعملون في الحقل ، وفي يدي عصاي اهش بها عليهم وعندما يهدني التعب فقد كنت استريح في ظل الجميزة الضخمة على مشارف حقلنا .. وابدا لم اسر وراء الانفار الى نهاية الارض .. لقد كانت متسعة الى حد بعيد .. وكان على حدود ارضنا .. ارض اخرى تفصلنا عنها ترعة صغيرة تسكب الماء الى الارضين . وكان هناك في موسم القطن قطن ايضا ، كانت الارض لا تفترق عن ارضنا في شيء حتى الانفار الذين يعملون عندنا كانوا يشبهون الانفار هناك .. وكثيرا ما عبثت مع الفتيات وانا صغير .. كثيرا ما كشفت عن ثيابهن وقرصتهن في افخاذهن .. وفي نهودهن المنتصبة .. كثيرا ما ضحكن مني ـ ولا تغضبي فقد كنت ايامها طفلا ـ ما اكثر ما اشتكى مني النخيل واشجار التوت والجميز ـ ولو في غير مواسمها ـ ما اكثر ما تجرحت ايدينا واذرعنا وارجلنا ـ واسمعي الى طفولتي تلك التي سألتني عنها ـ ولم اجب ـ كثيرا ما عبثت مع الاطفال الاخرين .. وكانوا يخشونني .. كنت اخيفهم وابطش بهم ايضا في بعض الاحيان . ولكني غالبا كنت لطيفا . ويوما ما .. كان القطن قد تفتحت ازهاره وانبثقت ثماره البيضاء الشاهقة وامتدت يدي الى وسط الحقل انزع بعض القثاء او الخيار او شيء اخر .. وامتدت ايامي في الحقل .. وفجأة دارت في الجو بعض الغربان .. وحلقت طويلا . الترعة التي تجري بين ارضنا والحقل المجاور لترويهما .. قيل انها محفورة في الحقل المجاور اكثر مما هي محفورة في حقلنا ، ولهذا لا يجب ان نستفيد منها ، وقال ابي ان هذا كلام اطفال وان الارضين اخذت منهما مساحة مساوية لتحفر فيها هذه الترعة ، واحتد النزاع بين ابي الشامخ بانفه ابدا ، وبين الرجل الطويل النحيل ذي الشوارب الغليظة .. واتفق الرجال في البلدة على امر .. ستسد هذه الترعة ـ وكان الحق ان قطننا جاء افضل من قطن هذا الرجل ـ وتوضع بين الارضين حدود بالاسلاك ، وليوصل الماء كل الى ارضه بقناة خاصة ورضي الرجال بذلك الامر .. وحقنت الدماء .. ولكن الى حين .. ففي المساء كان ثمة رجال يدقون الاوتاد في الارض .. وكان عمدة البلدة يشرف على العملية .. وامتدت الاسلاك .. واختفى الرجال عن ناظري وقيل انهم ما زالوا يدقون الاوتاد .. ويمدون الاسلاك ، وما بقيت معهم ، وعدت الى رفقتي نلهو في شوارع القرية .. وفي الصباح بكرت الى الارض لاشهد الاسلاك التي تفصل الارض عن بعضها ، وكان ابي هناك ـ ونادرا ما كان يأتي ـ ليشهد ما تم في الامر .. واندفع نحوه الرجل ذو الشوارب الغليظة كالمحموم صارخا :

ـ انكم لصوص .. لقد جرتم على ارضي .. واخذتم منها ودققتم الاوتاد بعد حدودها من الداخل .. لا بد من نزع هذه الاسلاك واعادتها الى وضعها الصحيح .. هل تفهمون ؟! ولم يرد ابي وظل صامتا برهة ثم اتجه بنظره الى الرجال الاخرين وقال في هدوء شديد :

ـ لن ازحزح هذه الاوتاد .. ولا ميلليمترا واحدا من مكانها .. والتفت نحو الرجل بغتة قائلا :

ـ .. كنت تهددني فانني انتظر تنفيذ هذا التهديد .. واذا كنت تتحدى فانني اقبل التحدي .. اما اذا كان لا بد من ان يبيع احدنا ارضه للاخر .. فلن اكون انا البادي بالبيع .. هل تدرك ما اعني ؟!

وهز ابي قبضته في وجه الرجل . فبرقت عيناه وارسلتا شررا وهو يقول :

ـ من الافضل لك ان تزيح الاسلاك قليلا ... وصرخ ابي محتدا مكفهر الوجه :

« ـ قلت لك لن ازحزحها عن مكانها .. » واجفل الرجال . وانسحب جارنا بطيئا وهو يردد بصوت خفيض :

« ـ انه من الافضل لك .. انه من الافضل لنا كلينا .. » واختفى في اتجاه القرية ، ورأيت على شفتي ابي بسمة انتصار مزهوة ، وتراقص شاربه الدقيق تحت انفه غبطة وفرحا .. ورغبت في تلك اللحظة اكثر من اي وقت مضى في البكاء ، انت لاتدرين اي حزن يبعثه في النفس انسان كسير .. وعندما داعبني ابي وهز رأسي .. ظللت صامتا ثم اندفعت عدوا الى القرية ودموعي تتساقط رغما عني .. لاادري لماذا أبكي بالتحديد .. هل كنت ارى المستقبل ؟!. لم يبت ابي تلك الليلة في الدار .. وفي الصباح .. علا الوجوم ملامح اقربائي وهم متجمعون بالمنزل . وسمعت امي تصرخ وتلطم خديها وتشق ثوبها .. رصاصة واحدة .. انطلقت واستقرت في جمجمته فانحنى رأسه للمرة الاولى والى الابد .. وفي احدى غرف البيت .. كان بعض اقربائي وعمي بينهم واجمين يتشاورون بهمس وغضب ، ودخلت استطلع الامر فصاح عمي لحظتها .. اذكر كلماته منذ خمسة عشر عاما بالحرف الواحد :

« ـ آه .. هذا هو رجلنا القادم .. » وانبسطت اساريرهم جميعا ، وقيل ان الرجل الطويل النحيل الاسمر ذا الشوارب الغليظة سيقضي في السجن خمسة عشر عاما .. ولم ادر .. هل ابكي مثلما فعلت امي ،

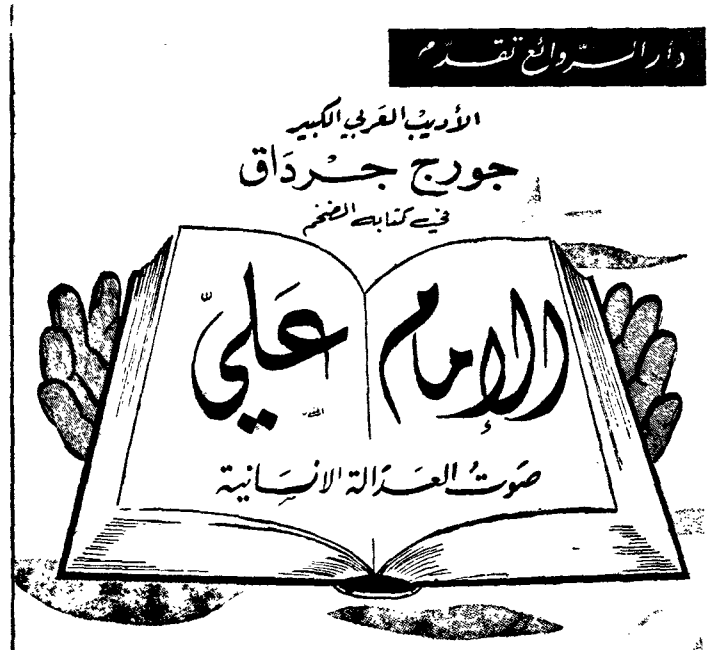

في خمسة اجزاء ثمن كل جزء منها ٥٠٠ قرش لبناني
١ ـ علي وحقوق الانسان ٢ ـ بين علي والثورة الفرنسية
٣ ـ علي وسقراط ٤ ـ علي وعصره ٥ ـ علي والقومية العربية
لا غنى لكل عربي عن هذا السفر الخالد الذي قيل فيه :
« إنه سيطور نظرة العرب الى حاضرهم وماضيهم »
والذي ترجم إلى خمس من لغات الشرق والغرب في عام واحد
دار الروائع ـ بيروت ـ ص.ب ٤٧٥١

عندما رمت اخي الرضيع وشقت ثوبها واخذت تصرخ لاطمة خديها .. ام ماذا .. ولكن عمي احتضنني .. وهدأ من روعي وقال لي :

« ـ انت رجل .. » ولم افهم ما اراد ـ لقد تعلمنا في المدرسة ـ على ماتعلمين ـ الرياضة واللغويات والكيمياء والطبيعيات والتاريخ والجغرافيا .. شيء واحد بقيت اتعلمه في المنزل ـ دروس خصوصية ـ ذلك هو الحقد .. لقد كان عمي يربيني طوال هذه المدة ويعلمني كيف اطلق الرصاص وكيف احكم السداد الى الهدف من اجل اليوم الموعود الذي سيقودني فيه الى حتفي .. ولم اعترض لحظة واحدة .. وكان سعيدا غاية السعادة .. ولكن : هل كان هو او كنت انا اتوقع ان التقي بك يوما لاجد نفسي للمرة الاولى . وأكتشف سر الجريمة الخطأ التي نحن بسبيل ارتكابها ، لم يدر بذهن اي منا على الاطلاق شيء كهذا .. كان يزورني .. انت تعرفين يوم تركتك ، وكنا على موعد ، اذ لم نكن قد التقينا منذ اسبوع لابقى مع : « بعض الناس .. انهم يريدونني ..» وحقدت انت على « بعض الناس »الذين يعكرون سعادتنا ، وكنت على حق .. ماكنا نبيت الليل .. ولكنه كان يحدثني عن اللحظة التي نذرت لها .. تصوري .. مثلما يفعلون بالماشية . فهم قد نذروني ايضا .. ويحدثني في حقد عن الرجل الاسمر .. ويريني صوره الاخيرة . لقد حفظت ملامحه وألفتها .. حتى انها تاهت في ذهني عندما حاولت ان اجمعها مرة واحدة فقط .. وفي هذه الليلة بالذات .. بدأ اعتراضي .. باحتجاج صامت .. لم أرد بحرف ، ولم أذهب معه لاودعه .. لقد اخبرني بان الرجل سيخرج في الايام القليلة القادمة . وقلت في نفسي : ولن سوف أتركك يا عزيزتي .. وكانت ليلتنا التالية عندما اخذتك تحت معطفي وكان الجو باردا وسرنا نتخبط في الشوارع الخالية ولا نتكلم .. تذكرين انني لم أتكلم .. وانك سألتني عن اشياء كثيرة ولم أرد الا بكلمات مقتضبة ، لم أكن الاحظ ارتعاشة شفتيك ، وكان ذلك على ما يبدو واضحا تمام الوضوح ..

ثم كانت ليلتنا الاخيرة . وافترقنا بلا كلمة وداع واحدة وحتى نسيت ان أقبلك كما تعودت أن أفعل .. ونزلت مسرعا .. ووجدتني انساق نحو البلدة يداعبني أمل : سوف أعود اليك حتما في الصباح ، وسأجدك نائمة على الفراش الذي كنت تغارين منه .. وسأهزك برفق لاوقظك ، وربما ستكونين مستيقظة ، وسوف تخرجين من غرفتي المهملة للمرة الاخيرة .. نعم للمرة الاخيرة سوف نفترق وبعدها نبقى معا الى الابد .. وسنعاود التفكير في الطفلة التي عليك ان تأتيني بها .. لكم تشوقت لان أراها يا حبيبتي ، يا حبيبتي المسكينة ، آه .. يا طفلتي الموعودة لست أدري كيف ستصلك هذه الصفحات ، ولكنها بالتأكيد ستصلك بطريقة ما .. وعندها ستغفرين لي أليس كذلك ؟!.. لقد عهدتك صافية النفس طيبة القلب الى حد بعيد .. سوف تصفحين عن بلادتي ، وصلفي وغبائي الذي أنهى قصة حبنا وما كان يجب ان تنتهي .. ولكن .. ها قد انتهت من حيث كان يجب ان تبدأ أعنف ما تكون : الشيء الوحيد الذي تألمت من اجله وندمت عليه الندم كله . تصوري ان حبنا ذلك الكبير .. آمالنا .. العظيمة .. واحلامنا الوردية .. كل ذلك ينتهي فجأة ، وفي لحظات قصار ، ومن اجل اي شيء ؟ !.. من اجل شبر من الارض .. بضع حفنات من الطين آه . يا عزيزتي .. يا عزيزتي .. انني لن اغفر لانسان يقرأ هذه الصفحات ولا يمد يده ليوقف تلك الجريمة ، وينتشل الضحية القادمة ..

اعتقد انني سأموت بعد لحظات .. واخي الذي بلغ السادسة عشرة في هذه الايام ، انني اخشى عليه من هؤلاء الانذال .. وربما لا يجد نفسه ولا يكشف خطاه الا بعد فوات الاوان ، ربما لا يجد جنته ، ولا يكشف المعنى الحقيقي للحياة الا وهو يموت .. بعد ان يصيب الجفاف حظه وينتهي كل شيء .. له الله .

ها قد انتهيت .. لم اعد قادرا على الاستمرار بعد . لعل تلك الصفحات تفسر لك شيئا .. ولكن : هل بها ينتهي الامر .. ؟؟ !!

*

ألقى القلم ، ومدد ذراعه جانبا ، ومرة ثانية ، كان الضوء يبدو باهتا مشوها ، وكان الابهام يتزايد في كل الموجودات من حوله . تراجع الى خلف فراشه والان .. ها قد انتهى كل شيء .. واقتربت منه الممرضة . بعد ان رمت ابرتي التريكو على المقعد . تناثرت بعض الاوراق على الارض وعلى الفراش .. اطفأت الممرضة بعض الضوء .. وجاءت اليه مسرعة :

« ـ هل تشعر بشيء ؟ »

« ـ اشعر براحة وحزن عميقين .. لا حد لهما ! »

« ـ سأحضر لك جرعة من الدواء »

« ـ كلا . لا داعي . أشكرك . لن يفيد ذلك شيئا ..فبعد بضع دقائق سوف ينتهي الامر »

« ـ سنجرب الدواء مرة .. وأ .. »

« ـ قلت كلا ! .. »

والجمتها كلماته . فظلت منتصبة فوق راسه . تراجع في الفراش ثانية وغادره . فراقبته بوجه منزعج ، جمع الاوراق المبعثرة ورتبها على المائدة وذهب الى المرآة على الجدار القريب وتطلع الى وجهه وافتر ثغره عن ابتسامة باهتة تنضح بالكآبة ثم عاد الى الفراش وتمدد مكانه ، كانت الحركة الاخيرة قد بدأت في داخله بطيئة وحيارة اكثر مما يحتمل .. وشعر بالبرودة تسري في عظامه واطرافه المرتعدة وانسحبت المرأة حتى باب الحجرة ، ولم يعد يراها .. وتزايد الضغط فانفجر اللحن الاخير في نغمات مضطربة ، وقاسية .. وانحبس الدم ملتهبا وحارا ، وفي تلك اللحظات عندما كان العزف قويا ، لم يكن يشعر بالالم .. لم يكن ثمة غير سائل ساخن يفرق الفراش ويزحف نحو ساقيه وفخذيه ويفرق منامته .. لم تكن هناك حدود لشيء .. الجدران السقف وكل شيء بدا مسطحا وهميا . لقد بدأ المد الاخير . ولن تنتهي هذه النوبة الا عندما تنهد قوته فلا يصخب ولا يعربد ثانية وخف المد شيئا فشيئا ، وعند ذلك احس بالالم وكتم صرخاته زمنا ثم افلتت منه في النهاية .. تأجج داخله كله بفعل النار التي اشعلتها اغنية المد الاخيرة وكانت تلك الاغنية في طريقها الى النهاية ايضا .. آ . آ . ه . أ . ع . ه وانغلقت عيناه على شبح امرأة متشحة بالبياض تسرع نحوه مذعورة الملامح ....

القاهرة

عطاء النقاش

كتابان خطيران

عارنا في الجزئر : لجان بول سارتر

الجلادون لهنري اليغ

ترجمة عايدة وسهيل ادريس

دار الاداب